رأي القدس

تقاعد الرئيس حسني مبارك

■ يحتفل الرئيس المصري حسني مبارك في ايار (مايو) المقبل بعيد ميلاده الثامن والسبعين، ولكن المؤشرات تؤكد ان الرجل مصمم على البقاء في الحكم حتى نهاية ولايته الحالية، اي بعد ست سنوات على الاقل.

الدكتور اسامة الباز المستشار السياسي للرئيس المصري قال «ان الرئيس مبارك جندي، والجندي لا يمكنه ان يهرب من المسؤولية. لا يمكنه ان يقول فليذهب الجميع الى الجحيم لقد مللت وتعبت».

ومثل هذا التفسير هو الذي جعل من الدكتور الباز مستشارا لثلاثة رؤساء في مصر، تعاقبوا على سدة الحكم منذ الستينات. فالدكتور الباز يبرر ما لا يمكن تبريره مهما بلغ من القدرة البلاغية والفصاحة اللغوية. فاذا افترضنا ان الرئيس مبارك جندي مثلما قال الدكتور الباز، فان الجنود لا يبقون في الخدمة العسكرية حتى الثمانينات من عمرهم، بل يتقاعدون، وكذلك قياداتهم، لان لكل جندي عمرا افتراضيا، ويجب ان يعتزل او يعزل اذا وصل الى سن معينة، والا لاصبحت الجيوش ملجأ للعجزة والهرمين.

الدكتور الباز انتبه الى هذه النقطة في حديثه الى وكالة انباء «رويترز» وقال مستدركا ان الرئيس مبارك «يرحب» بالتقاعد اذا وجد من يخلفه.

الرئيس مبارك يتولى الرئاسة منذ ربع قرن، ولكنه لم يعثر طوال عقدين من رئاسته على الاقل على نائب له، لانه ببساطة يملك مخططا لتوريث نجله جمال السلطة من بعده.

في احدى زياراته للعاصمة البريطانية لندن، التقى الرئيس المصري بابناء الجالية المصرية، وتبادل معهم الرأي حول العديد من القضايا، وعندما سأله احد الحاضرين عن الاسباب التي تحول دون تعيينه لنائب له، قال له بانه لم يجد واحدا يصلح لهذه المهمة، وواصل موجها كلامه الى السائل «دلني على واحد يصلح وانا اعينه بكرة».

فاذا كانت العائلة الحاكمة في مصر لا تفكر بتوريث السلطة من الاب الى الابن مثلما يؤكد السيد الباز، فلماذا لا يحسم الرئيس مبارك هذه المسألة عمليا، ويقطع الطريق على كل من يخوض فيها، ويعين نائبا له، خاصة انه مريض، ويتطلب مرضه العلاج في الخارج من حين الى آخر.

فلا يعقل ان مصر التي يزيد تعداد سكانها عن سبعين مليون نسمة، يحملون في جيناتهم سمات حضارة تمتد لسبعة آلاف سنة، لا يوجد فيها شخص لا يصلح لكي يكون نائبا للرئيس مبارك.

الرئيس لا يريد تعيين نائب له، ولو كان يملك النوايا الصادقة في هذا الاطار لسمح بانتخابات رئاسية نزيهة، ثم اختار بعدها من يليه في عدد الاصوات لكي يكون نائبا له، مثلما يحدث في جميع الانظمة التي تقدم مصالح الشعوب على مصالح الافراد.

السيد جمال مبارك ما زال هو المرشح الاقوى لخلافة والده، فتأجيل الانتخابات البلدية، ومنع المعارضة من الحصول على ثلث المقاعد في مجلس الشعب بالقوة واعمال البلطجة، حتى لا تعرقل ترشيحه لهذا المنصب اذا ما خلا لامر ما في المستقبل يصبان في هذه النتيجة.

ليس مبارك فقط الذي يجب ان يتقاعد، وانما ايضا الدكتور اسامة الباز بحكم السن، وبحكم عدم القدرة على فهم ما يجري في مصر حاليا من تحولات نحو التغيير، تغيير الحكام وتغيير المستشارين.

العرب ومثلث الهويات المتصدع

د. مضاوي الرشيد *

■ ما يجري في العراق من اقتتال طائفي واضح وصريح رغم خلفية الشعارات الداعية الى الوفاق والوحدة يجعلنا نطرح موضوع الهويات في العالم العربي بشكل عام. منذ نشوء الدولة العربية الحديثة نجد ان ثلاث هويات تصارعت والتقت حسب الظروف السياسية والمرحلية. الهوية الاولى سميت بالوطنية والتي حصرت حدودها داخل الدولة القطرية الحديثة. الهوية الثانية كانت اوسع واشمل اذ انها تركزت على مفهوم العروبة كقومية تستطيع الشعوب من خلالها تكريس انتماء عام لتاريخ وحضارة وثقافة ولغة مشتركة. الهوية الثالثة كانت أممية اكثر شمولية اذ انها اعتمدت على الاسلام وحيزه الذي يستوعب شعوبا ودولا اكثر تعدادا من العرب الحضاري والثقافي واللغوي.

شكلت هذه الهويات مثلثا له زوايا هشة او بالاحرى ظهرت عليها الهشاشة. الهويات هذه حملت شعارات خلابة تبهر الجماهير لانها شعارات فضفاضة لم تصمد امام الممارسة الواقعية وخاصة ممارسة الدولة القطرية ذاتها والتي كانت الاطار المركزي الاقوى من حيث القوة الفعلية القمعية والقوة الاقتصادية من حيث امتلاك الثروات والدخل.

تصدع المثلث تحت وطأة الممارسة الداخلية من قبل الدولة القطرية وممارسة الخارج المهيمن عن طريق اما الاستعمار المباشر او غير المباشر. طورت كل دولة عربية احدى زوايا المثلث اما على حساب الزوايا الباقية او لتضرب هذه الزوايا ولم تعمل ابدا على التوفيق بين الوطني (القطري) والقومي (العربي) او الأممي (الاسلامي).

صنف معين في الدول القطرية شجع شعار العروبة على حساب اما الوطني او الاممي وصنف آخر تغنى بشعار الاسلام الأممي وكفر وخون العروبي وتجاهل الوطني كليا. ظروف كل قطر عربي أملت نوعا معينا من المواقف تجاه مثلث الهويات هذا. ونستطيع ان نجزم ان أي دولة قطرية لم تستطع ان تخلق التوازن بين هذه الهويات المبنية على تصور ليس فقط للماضي بل للحاضر والمستقبل. صنعت هذه الهويات الثلاث في فترة تاريخية معينة وحرجة أملتها ظروف انهيار الامبراطورية العثمانية كليا بعد الحرب العالمية الاولى وتقسيم الجغرافيا العربية الى كيانات قطرية تحول العرب نتيجة هذا الانهيار من مجموعات عاشت ضمن حدود امبراطورية متعددة الجنسيات والاعراق والاثنيات واللغات والديانات الى كيانات جغرافية رسمت حدودها دول غربية كان همها تقسيم المصالح والمواقع. بعد مخاض عسير ضد الاستعمار بأشكاله المختلفة خرجت الدولة القطرية لتتغنى بالهوية الوطنية كشعار اذ ان الممارسة السياسية اثبتت ليس وطنية الدولة القطر بل اقصائيتها وفئويتها. كانت ممارسة الدولة القطرية عقبة امام المشروع الوطني وليس رائدا في تثبيته. دولة ما بعد الاستعمار جندت الكثير من الموارد الاقتصادية لبلورة الشعار الوطني وترويجه فبنت هذه الدولة مراكز الابحاث والنشر لتنشر وتروج اساطير تاريخية عن الوطن كان معظمها يختزل التعددية الداخلية لمجتمع القطر بل حتى انها كانت تنفيه في برامجها التعليمية ومقولاتها السياسية. بالاضافة الى هذا الاختزال كانت دولة القطر دولة مركزية احتكارية للثروات الاقتصادية ومصادرة لحقوق الفرد عدا من كان يدور ضمن اطارها السياسي الايديولوجي او من كان من حماتها على ارض الواقع. لم تستطع الدولة المتشدقة بالوطنية ان تعمم المشروع الوطني والذي يضمن سيادة القانون واحترام الفرد كعنصر مهم في المشروع الوطني وتلبية حاجاته الاقتصادية وحقه في التعليم والعمل والعيش والمساواة.

كان لفشل المشروع الوطني تداعيات ها هي معظم الدول القطرية في المنطقة تعاني منها بدرجات متفاوتة. لم تستطع الدولة الوطنية ان تحل معضلة تعدد الهويات على الجغرافيا المحلية. ورث العرب مشروع الدولة القطرية الوطنية دون المفاهيم والقيود التي رافقت مشروع الدولة في مناطق اخرى من العالم. لذلك ظل مفهوم الوطنية والهوية المرافقة له كنتاج فكري لنخبة من المثقفين وليس ممارسة فعلية يشعر بها المواطن. حلمت هذه النخبة ونظرت لمفهوم الوطن والمواطنة على أمل ان تذوب وتنصهر التعددية الاجتماعية بينما مارس رجال السلطة عملية استقطاب واسعة لجماعات اما اثنية او عرقية او مناطقية او طائفية. كانت الفجوة بين التنظير السياسي والممارسة السلطوية كبيرة جدا. جاءت المناهج التعليمية لتكرس صورة نمطية للوطن الجديد فلا تعترف هذه الصورة بالاختلاف بانواعه المتعددة لسكان الوطن بل هي تدين الاختلاف وتعتبره خطرا على الوحدة الوطنية واثارة للفتنة الداخلية بينما هي تمارس اكبر عملية اقصاء متسلحة بموارد جديدة اقتصادية استطاعت ان تسيطر عليها بحكم كونها السلطة المركزية السياسية والعسكرية في المجتمع. خونت الدولة القطرية كل من يتغنى بثقافة او هوية محلية ضمن اطار حدودها الجغرافية. وفي نفس الوقت سمحت دولة القطر فقط بالتغني بالفلكلور المحلي والرقصات الشعبية والزي المناطقي والصناعات والحرف التقليدية والتي تراكمت معالمها في المتاحف التي انتشرت في كل الدول العربية. اثبتت الممارسة ان الدولة ذاتها قد طمست بعض الجماعات المتغنى بتراثها الفولكلوري في المتحف وهضمت الكثير من حقوقها الفردية والجماعية. تغنت الدولة القطرية الوطنية بالمساواة والعدالة وتقسيم الثروة على اساس المواطنة ولكنها مارست ريبة وحذرا تجاه المختلف الذي يفند مزاعمها الشمولية. وبما ان هذه الدولة كانت منذ نعومة اظفارها دولة استبدادية فقد فشلت في توفير الفرص التي تمكن المجتمع المتعدد المصالح الاقتصادية والفكرية والسياسية من تنظيم نفسه فقمعت الدولة الحركات العالمية ومؤسسات مستقلة وتجمعات شعبية تقليدية وحديثة من منطلق تجنيد المجتمع للمشروع الوطني الكبير وتثبيت ولائه للوطن والذي كان عادة تثبيتا للولاء للشرائح الحاكمة.

من تداعيات هذا الوضع المزري وفي ظل هذا القمع والاقصائية نمت هويات اخرى ترعرعت على حساب المشروع الوطني ـ القومي والأممي. الهويات الجديدة يصح تسميتها بهويات بدائية (ليس بمعنى التخلف بل بمعنى الاولية) وهي الهويات التي يكتسبها الانسان نتيجة الولادة في مجموعة ما كالهوية الاثنية او الطائفية او المناطقية.

هذه الهويات ليست بالجديدة بل هي هويات قديمة تم تجديدها وبث الروح فيها لتصبح متجددة وحيوية. بعد ان سدت الدولة القطرية الكثير من الابواب على المجتمع، تقوقع هذا المجتمع خلف هذه الهويات البدائية كالطائفية والعرقية والقبلية وغيرها. تعتمد هذه الهويات على الانتماء للمجموعة الصغيرة. هذا الانتماء ليس بالطوعي او بالتعاقدي بل هو مفروض على الفرد من قبل المجموعة على اساس الانتماء الناتج عن ولادة الشخص ضمن اطارها. فالشيعي والسني والكردي والقبطي والحجازي والنجدي والبربري والآشوري وغيره يكتسب هذه الهويات تلقائيا وبدون جهد او عناء. تحت مظلة الدولة القطرية القمعية تفجرت هذه الهويات على حساب الهوية المروج لها من المركز السياسي. بل ان بعض هذه الهويات كانت قاعدة الدولة ذاتها والذي بالضرورة يجعل الهويات الاخرى مقصاة ومهمشة.

عندما تغنت السلطة ومثقفوها بمشروع الوحدة الوطنية نجد ان هذا التنظيم الشعاراتي لم يلق استجابة حقيقية من قبل الشرائح الاجتماعية بل نجد ان هذه الشرائح تقوقعت خلال هوياتها الضيقة القبلية والطائفية والاثنية والمناطقية واعادت صياغة هذه الهويات التي لم تعد ثقافية فقط بل بثت فيها روحا سياسية من اجل المطالبة بحقوق جماعية اما للطائفة او للكتلة الاثنية او للقبيلة. اصبحت هذه الكتل تتحدث عن ذاتها من منطلق اما اقليات مهمشة او اكثرية مقصاة عن المشروع الوطني الكبير الذي لم يكتب له النجاح الكامل.

ما يحصل في العراق اليوم من عنف طائفي ما هو الا حالة تكثف لعملية تراكمية لا يمكن ان نعزيها كليا الى الوجود الاجنبي الامريكي او الى مؤامرة «صهيونية» كما عودتنا الدولة القطرية على سماعه خلال اكثر من نصف قرن. نعم التدخل الخارجي يعتمد في اساليبه المتنوعة للهيمنة والسيطرة على خلق تكتلات تقسم المجتمع وتؤدي الى شرذمة القرار الوطني والوحدة الجماعية لكن مثل هذا التفسير لا يشرح الا نصف الحقيقة. اذا اعتبرنا التدخل الاجنبي السبب الوحيد خلف القتال الطائفي نحن بذلك نتهرب من مواجهة الواقع العربي وفشل الدولة القطرية الفئوية بالذات عن طريق ممارستها السياسية الاقصائية ومسؤوليتها في تبلور الهويات الطائفية القديمة وتسييسها على حساب الهوية الوطنية.

الدولة القطرية والمستعمر شريكان اليوم في مشروع اعادة احياء الهويات الضيقة. فكما ان الدولة القطرية قد تستقطب زعامات قبلية وطائفية وتخلق منها مركزا لتنفذ سياستها في منطقة او قبيلة او طائفة ما كذلك المستعمر ذاته. عندما وصل جنرالات بريطانيا الى البصرة راحوا وبسرعة خارقة يبحثون عن «شيوخ القبائل» و«المرجعيات» لانهم لا يستطيعون ان يحكموا الا من خلال هؤلاء وهم بذلك يكرسون مبدأ الالتفاف حول مثل هذه الزعامات غير المنتخبة. كذلك تصور الولايات المتحدة لعراق ما بعد صدام كان تصورا مبنيا ليس على هوية وطنية عراقية بل على اساس طوائف وكانتونات دينية او عرقية او اثنية.

المستعمر لا يستطيع ان يخلق الهويات البدائية فالولايات المتحدة لم تخلق السني والشيعي والكردي وغيره اذ ان هذه الهويات الضيقة موجودة قبل ان توجد الولايات المتحدة ذاتها ولكن استطاعت الولايات المتحدة ان تعجل وتكرس تسييس هذه الهويات لتطغى على غيرها من الهويات الاخرى كالهوية الوطنية او الاممية او القومية للشعب الذي يقطن الساحة الجغرافية المعروفة بالعراق. وكذلك فعلت الدولة القطرية عندما امسكت بزمام الامور. هي ايضا بتصرفاتها السياسية غذت الانتماء البدائي على حساب الوطني او القومي. وعندما انهارت الدولة القطرية عام 2003 ظهر بوضوح مدى تأصل الهويات الطائفية في العراق. يتغنى العراق الجديد بالمشروع الوطني الفدرالي ولكنه يتحرك ويمارس السياسة من الموقع الطائفي والاثني. لاحظوا كيف اختفى تماما منظور المشروع الوطني الكبير وافسح المجال للشخصيات التي تستمد شرعيتها من مبدأ الدفاع عن الطائفة اي الهوية البدائية التي يولد في اطارها الانسان. الكردي يتحدث من منطق كرديته والسني يطالب بحقوق من مبدأ كونه سنيا ـ اقلية في العراق الجديد عدديا وسياسيا ـ والشيعي يتحدث من موقع كونه اكثرية شيعية. اختزل العراقي اليوم ذاته وهوياته المتعددة السابقة بكونه عضوا في احد هذه الكانتونات. هذا التوقع لم يكن ليحصل لولا الارضية المهيئة لمثل هذا التصرف وهذه الممارسة السياسية التي هي نتيجة حتمية لفشل المشروع الوطني خلال فترة تزيد عن نصف قرن.

العراق مثل واحد في العالم العربي اذ ان هذه المنطقة تمر بمرحلة حرجة نتيجة فشل المشروع الكبير. تفتق الهويات البدائية على حساب الوطني والقومي والاممي ينذر لدخول المنطقة حالة فوضى وتشرذم مصاحبة بعنف أعمى قاتل. لم تترسخ الهوية الوطنية في كثير من الاقطار العربية. نلاحظ ان الكل يحاول نبش هوية ضيقة والتي اصبحت هذه الهوية صمام الامان (او على الاقل هذا ما يفتقده مروجو مثل هذه الهويات) الذي تواجه فيه المجموعات بطش الدولة القطرية واقصائيتها المتراكمة عبر عقود طويلة.

نلاحظ ان هناك مجموعات لا تتحدث من منطلق كونها مصرية او سعودية او يمنية او سودانية بل هي تطرح نفسها كمجموعات قبطية حجازية ـ نجدية ـ زيدية ـ اسماعيلية ـ شيعية ـ مارونية الى ما هنالك من جزئيات تكتسب اليوم معنى سياسيا لا ثقافيا او مذهبيا او حضاريا. تطرح هذه الكيانات نفسها على انها كيانات سياسية تستطيع ان تضمن حقوقا جماعية لافرادها والمنتمين اليها.

ساعدت العولمة بتكنولوجيتها المعلوماتية السريعة على بلورة هذه الهويات. على عكس ما توقعه منظرو العولمة ومروجوها لم تصهر العولمة الثقافات والهويات وتقرب الحدود بل هي اليوم تقاوم عن طريق التقوقع في نطاق الهويات الضيقة. استطاعت تكنولوجيا العولمة من فضائيات والشبكة المعلوماتية ان تكرس ما يسمى ـ اي مجموعات الكترونية تشترك Virtual Communities فضائيا في مفاهيم معينة. في العالم العربي نرى اليوم ان لكل طائفة وقبيلة ومنطقة وعرق اثني موقعا الكترونيا وحتى فضائية عالية. الكل يتغنى بخصوصيته ويمارس انواعا مختلفة من القدح والذم والتشنيع على الآخر تحت برقع الاسماء المستعارة والهويات الخيالية. استغل الطائفي والعرقي والعنصري والقبلي التكنولوجيا ليطور وعي مجموعته وتضامنهم بأسلوب مبتذل ورخيص يعتمد على شيطنة الآخر الذي لا ينتمي الى فكره وعقيدته ومذهبه وطائفته وعرقه وقبيلته.

بعد سقوط الدولة القطرية ومعها شعار الهوية الوطنية تقوقعت المجتمعات العربية خلف اسوار ضيقة في مرحلة حرجة تزامنت مع هجمة خارجية جديدة لها شعاراتها الخاصة بها. اليوم نحن لا نواجه كعرب اقصائية الدولة القطرية ولا شمولية الهوية العربية او الاممية الهوية الاسلامية بل نواجه بشكل عنيف وشرس تفتق الهوية الضيقة بوجوهها المتعددة كالطائفية والعرقية والقبلية. وطالما اننا نفسر هذه الظاهرة وكأنها عمل من اعمال الشيطان المستعمر او الصهيوني لن نصل الى نتيجة تساعدنا على تجاوز المرحلة والحد من الاقتتال. قبل ان نحمل الخارج المسؤولية يجب علينا ان ننبش ذواتنا ونبحث عن السبب الذي يحركنا ويثير نعراتنا المتعددة الوجوه. لن نتجاوز طائفتنا واثنيتنا وقبيلتنا ومنطقتنا طالما ان الدولة الاقصائية المستبدة تختزلنا في معادلة بسيطة تسمح لها بالسيطرة على تاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا يجب ان نعيد صياغة الدولة القطرية لنتغلب على نعراتنا وما اكثرها. عندها فقط نستطيع ان نحول الوطنية من شعار الى ممارسة ومن ثم نحلم بالهوية القومية العربية او الاممية الاسلامية.

* كاتبة واكاديمية من الجزيرة العربية

أبعاد التحالف النووي بين امريكا والهند

د. سعيد الشهابي *

■ برغم محاولات بعض الكتاب والسياسيين تبرير الصفقة النووية التي أبرمت بين الولايات المتحدة الامريكية والهند خلال زيارة الرئيس بوش الاخيرة لنيودلهي، فانها تعتبر خرقا واضحا لمعاهدة الحد من انتشار الاسلحة النووية، وإضعافا لموقف الذين يضغطون على ايران بخصوص مشروعها النووي السلمي. فالمعاهدة تنص على عدم مساعدة اية دولة تسعى للحصول على التكنولوجيا النووية الا اذا كان مشروعها لا يهدف لانتاج السلاح النووي على الاطلاق. ونظرا لتشكيك الولايات المتحدة في نوايا طهران بخصوص مشروعها النووي، تواصلت الضغوط على الجمهورية الاسلامية في الاعوام الثلاثة الاخيرة، واجبرت الوكالة الدولية للطاقة الذرية على اتخاذ قرار باحالة ايران على مجلس الامن الدولي. وفيما يتواصل التوتر بشأن المشروع النووي الايراني، جاءت زيارة الرئيس بوش للهند وتوقيع الاتفاقية لتؤكد ازدواجية السياسة الامريكية، ولتضعف الارضية التي تنطلق عليها جهود مواجهة المشروع الايراني. ولذلك فليس مستبعدا ان تواجه الاتفاقية التي أبرمها الرئيس بوش مع الهند معارضة قوية من قبل الكونغرس الامريكي عندما تعرض عليه للتصديق في وقت لاحق. الرئيس الامريكي ربما يسعى لتثبيت فكرة أساسية تمثل جانبا من الاستراتيجية الامريكية في عهد المحافظين الجدد، مفادها ان من يفتح ذراعيه وأبواب منزله للغرب، فبامكانه الحصول على تسهيلات ومساعدات مادية، بالاضافة الى غض الطرف عن ممارساته واساليب حكمه. البعض يرى ان الصفقة توفر نوعا من الاجابة على تساؤل مهم ينتاب الساسة الغربيين: ما العمل مع الدول التي تمتلك سلاحا نوويا ولكنها لم توقع على اتفاقية حظر انتشار الاسلحة النووية؟ كما يرى ان الصفقة حققت أمرا واحدا يعتبرونه مهما وهو موافقة الهند على تصنيف 14 من بين 22 مفاعلا نوويا تمتلكها بانها «مدنية» بصورة دائمة «لا رجعة فيها»، وسوف تخضع للرقابة من قبل الوكالة الدولية للطاقة الذرية. اما المفاعلات الثمانية الباقية فسوف يتم اعتبارها «منشآت عسكرية» ولن تخضع للرقابة. وفي المقابل، سوف تحصل الهند على تكنولوجيا نووية اضافية من الولايات المتحدة. وبذلك تستطيع الهند توسيع الجانب العسكري من مشروعها النووي لانها تمتلك من اليورانيوم المخصب والبلوتونيوم ما يساعدها على ذلك.

ثمة تساؤلات حول طبيعة العلاقة المتجددة بين الهند والولايات المتحدة الامريكية. فحتى وقت قليل كانت الهند محسوبة على خانة الدول التي لا تتمتع بصداقة حميمة مع الولايات المتحدة، وكانت أكثر ميلا للاتحاد السوفياتي خلال الحرب الباردة. وما تزال القوى اليسارية الهندية قوية وفاعلة، ورافضة للتطبيع مع واشنطن. فعندما تشكلت في العام 1998 حكومة بزعامة بهاراتيا جاناتا وهو حزب الهندوس المتطرفين (بي جي بي) على رأسها أتال بهاري فاجباي، قامت بسلسلة من التجارب النووية تحت الارض الامر الذي أزعج الرئيس الامريكي، بيل كلينتون، فقام بفرض مقاطعة اقتصادية للهند، على اساس القانون الامريكي الذي صدر في 1994 المعروف بـ«قانون منع انتشار الاسلحة النووية». ولكن تصاعد التوتر بين الهند وباكستان في السنوات اللاحقة، وبروز ظاهرة الارهاب، كل ذلك وفر ظروفا مناسبة لتطوير العلاقات بين واشنطن ونيودلهي. والملاحظ ان تلك العلاقات لم تتطور الا في عهد حكومة الحزب الهندوسي المتطرف، الذي أدت سياساته لعهد دموي مع المسلمين. ففي 1992 قام المتطرفون الهندوس، بتحريض من الحزب، بتدمير المسجد البابري في مدينة أيوديا، ونجم عن ذلك مواجهات أدت الى قتل الآلاف من المسلمين. ونتيجة سياسات الحزب الهندوسي المتطرف تواصل التوتر بين الهندوس والمسلمين. ففي 2001 حدث هجوم على البرلمان الهندي اتهمت باكستان بتدبيره، وتم حشد القوات على جانبي الحدود، وكانت هناك خشية من وقوع حرب نووية بين الجانبين. وبعد تعرض قطار يحمل عمالا هندوسيين لهجوم ارهابي في شباط (فبراير) 2002 أدى الى مقتل 57 منهم، تعرضت منطقة كوجرات لاعمال ارهابية من قبل الهندوس ادت الى مقتل اكثر من الف من المسلمين. وتواصلت ردود الفعل السلبية تجاه الحزب الهندوسي المتطرف، حتى العام 2004 عندما هزم في الانتخابات وفاز «التحالف التقدمي المتحد» ليشكل حكومة ائتلافية يتصدرها حزب المؤتمر، وهو الحزب التقليدي الذي حكم الهند منذ استقلالها عن بريطانيا في 1947. وفي اطار هذا الحزب، تمكن المهندس المهاتما غاندي من قيادة شعبه في نضاله السلمي ضد الاحتلال البريطاني. يومها كان غاندي يتطلع لبلد ديمقراطي يتعايش فيه المسلم مع الهندوسي ويتمتع باستقلال سياسي كبير. وقد لعبت الهند في عهد جواهر لال نهرو، اول رئيس وزراء للهند دورا محوريا في حركة عدم الانحياز، داعمة قضايا شعوب العالم الثالث، ونضالها ضد الامبريالية. ولكن الحكومة الحالية استمرت على نهج الحكومات التي تصدرها حزب بي جي بي، خصوصا في مجال تطوير العلاقات مع الولايات المتحدة الامريكية. وفي 18 تموز (يوليو) 2005 وقع رئيس الوزراء الهندي الحالي، مانموهان سينغ اتفاقية استراتيجية مع الرئيس جورج بوش، وبدأ الطرفان يعملان على تنفيذها.

زيارة الرئيس بوش الاخيرة للهند جاءت على خلفية تلك الاتفاقية، وفتحت ملف العلاقات الهندية ـ الامريكية في جوانبها السياسية والاستراتيجية والاقتصادية. ومن الاعتبارات الاستراتيجية المهمة ثلاثة أبعاد. أولها يرتبط بالجغرافيا السياسية في جنوب آسيا. فالصين تمثل مصدر ازعاج غير قليل للولايات المتحدة لامور عديدة. من هذه الامور أولا التوسع الاقتصادي لهذا البلد الذي هو الأكبر في العالم من حيث عدد السكان، وما يرافق ذلك من تطور تكنولوجي متواصل أصبح يمثل منافسة حقيقية للتكنولوجيا الغربية، ويسيطر على الاسواق العالمية، ويضيق الخناق على الصادرات الامريكية. وفي الاسبوع الماضي عبر السيد جيمس مندنهول، مدير مكتب التمثيل التجاري الامريكي، عن قلق حكومته ازاء السياسات الاقتصادية الصينية، متهما الصين بانها لم تتخذ اجراءات كافية في ما يتعلق بحماية الملكية الفكرية وبراءة الاختراع. وهدد الصين باتخاذ اجراءات ضدها لدى منظمة التجارة العالمية بدعوى ان الصين ما تزال تمارس سياسات حماية بوجه الصادرات الاجنبية، وتنتهك مبادىء تحرير التجارة. وثانيا ان التقارب مع الهند اصبح ضرورة لمواجهة تمدد النفوذ الصيني. وكما يقول السيد جوزيف سيرينسيون، رئيس مشروع الحد من انتشار الاسلحة النووية بمؤسسة كارنيجي للسلام العالمي: ان الولايات المتحدة تعد لصراع واسع مع الصين وتبني تحالفا ضدها... ووفقا لهذا السيناريو، اصبحت الهند اكثر قيمة كقوة نووية منها كقوة غير نووية».

وثالثا ان الولايات المتحدة تخطط لاستمرار صراعها مع الاسلام السياسي في اطار ما تسميه الحرب ضد الارهاب. ولذلك لم يكن من قبيل الصدفة ان يستقبل الرئيس الامريكي على الاراضي الهندية باحتجاجات واسعة من قبل المسلمين الهنود على نطاق واسع، بالتحالف مع القوى اليسارية والشيوعية. ففي مدينة حيدر آباد التي زارها الرئيس بوش مثلا، أغلقت المحلات التي يملكها المسلمون ابوابها احتجاجا على زيارة الرئيس الامريكي، كما نظمت مظاهرات احتجاجية حاشدة في العاصمة ومناطق اخرى. واستقبل بوش بمسيرات رفع المشاركون في بعضها صور رموز تنظيم القاعدة في تحد مكشوف مع الولايات المتحدة. وتمثل الهند ثقلا مهما في هذا الصراع بسبب خلفية الصراعات الدينية لديها من جهة والمشكلة الكشميرية من جهة اخرى والحساسية المفرطة في العلاقات مع باكستان من جهة ثالثة. فبرغم التقارب بين الهند وباكستان في العامين الاخيرين، فان انفجار الصراع وارد في أي وقت. رابعا ان الهند اصبحت قوة اقتصادية صاعدة، فمعدلات النمو الاقتصادي لديها عالية جدا، ويتوقع ان يصل في العام الحالي الى 1.8 بالمائة، وذلك بسبب نمو قطاعي الخدمات والصناعة بمعدل يزيد على 5 بالمائة. هذا يعني ان الاقتصاد الهندي سوف يضغط على السوق النفطية بشكل اكبر ويساهم في صعود اسعار النفط. ويبرر مسؤولو البيت الابيض الاتفاقية النووية مع الهند بانها احدى السبل لتخفيف الضغط على السوق النفطية مستقبلا لان محطات الطاقة النووية ستوفر نسبة اكبر من احتياطات الهند. كما ان التقارب بين البلدين سوف يوفر لواشنطن وسائل ضغط على الهند لحملها على فتح اسواقها بشكل اكبر والالتزام بمبادىء التجارة الحرة. ربما من السابق لأوانه القول بان الاتفاقية النووية التي وقعت بين الولايات والمتحدة تمثل تحالفا استراتيجيا بين البلدين. ولكن من الواضح ان واشنطن تتحرك بخطى سريعة للوصول الى ذلك التحالف. فاعلان واشنطن عن استعدادها لبيع اسلحة عسكرية متطورة للهند خطوة غير مسبوقة تعكس توجها امريكيا جادا على طريق ذلك التحالف. ويمكن النظر الى ذلك من زوايا مختلفة. فالادارة الامريكية اعلنت انها مستعدة لبيع طائرات عسكرية متطورة للهند، وهو امر لا يحدث عادة الا مع الحلفاء المقربين جدا من واشنطن. وفي هذا الجانب قال تصريح رسمي صدر من البنتاغون في ضوء الزيارة: لقد أوضحنا نيتنا بمنح «الهند» طائرات من نوع لوكهيد مارتن اف 16 وبوينغ اف 18 هورنت، وكلاهما مجربتان عمليا في الحرب. وكلما دخلت امكانات اضافية الى قواتنا، سوف نعمل حكومة الهند لتزويدها بها... ويشمل اقتراحنا ايضا الاهتمام برغبة الهند في نقل التكنولوجيا والانتاج المحلي المشترك». هذه خطوات متسارعة تكشف مدى حرص واشنطن على الامساك بالهند كحليف جديد في منطقة مليئة بالصعوبات والعداء للولايات المتحدة.

* كاتب وصحافي بحريني يقيم في لندن

اللعنة الطائفية

محمد كريشان

■ قبل يومين كتب رئيس الوزراء اللبناني الأسبق سليم الحص مقالا مؤثرا بجريدة «السفير» تحدث فيه بألم وحرقة عن التصنيفات الطائفية التي باتت متوغلة في حياتنا السياسية الحالية بين المسلمين بين سنة وشيعة وما يحمله ذلك من نذر شؤم اكتوى لبنان بنارها لسنوات وها هو العراق الآن على الطريق إذا لم يعمل العقلاء على وأد فتنة مدمرة لا تعكس فقط ضيق أفق وتعصب يلغي العقل بل وحتى الإيمان بالدين الحنيف نفسه.

كل العراقيين الذين تعرفهم أو تلتقي بهم لا يختلفون في معظمهم في القول إن هذه النعرة الطائفية البغيضة والمتخلفة بين سنة وشيعة لم يكن يعرفها أبناء العراق أبدا، وعلى حد قول أحدهم فأنت لا تعرف دين أحدهم أو مذهبه إلا بعد أن توافيه المنية في ضوء ما يقام له من مراسم، وكان الأهالي ينهرون أولادهم إذا ما عن لأحدهم أن يسأل عن شيء من هذا القبيل. حتى الرئيس العراقي السابق وما عرف به عهده من جور واستبداد لم يكن طائفيا، على عكس ما يروجه البعض، بمعنى أن الولاء لشخصه ونظامه هو الميزان الذي تقاس به كل الأمور عنده وليس اعتناق هذا أو ذاك للدين الفلاني أو المذهب العلاني.

هذه الطائفية المقيتة فيروس كريه حمله العائدون على ظهور الدبابات الأمريكية لأنه يمكن أن يشكل وقودهم الوحيد إن هم عملوا على إذكاء المخزون الديني الكامن في كل شخص بطريقة انتقائية لئيمة وإقصائية حتى بات الانتماء للطائفة يتقدم عن كل ما عداه والولاء لها يتفوق عن الولاء للوطن والدين نفسه. هذا ما كشفته أحداث عديدة كان آخرها الاعتداء المدان على المراقد في سامراء وما فجره من أعمال قتل وانتقام لم تراع لبيوت الله حرمة فنهب منها ما نهب وحرق منها ما حرق وسط حديث معيب عن مساجد للسنة وأخرى للشيعة، وهي أعمال لم تتجرأ على ارتكابها بهذه الفظاعة والاتساع قوات الاحتلال نفسها التي كان يشهر بها لاقتحام مسجد هنا أو هناك أو إهانة للمصحف الكريم فإذا بمن تمكن به جن الطائفية وتلبسه يفعل ما هو أشنع وألعن.

من الصعب إقناع العالم بعد كل هذه الضغينة والحقد المقيتين أن مصيبة العراق هي في بقاء الاحتلال، بل إن ما يحصل لن يصلح إلا لإطالة أمده وليس من الصعب أبدا السعي للترويج بأن أبناء العراق يحملون لبعضهم من الكراهية ما يجعل مغادرة القوات الأجنبية إشارة الانطلاق لحرب تصفية مذهبية واسعة لا تبقي ولا تذر. لقد نفخ الطائفيون العائدون إلى العراق في نار هذه الفتنة التي عمل على إيقاظها من رماد التاريخ الغابر المحتلون ثم زاد في إذكائها والانخراط فيها جماعة الزرقاوي ومن يوصفون بالتكفيريين الذين تقدمت عندهم مقاتلة الشيعة عما عاداه من قتال، فيما تسرب الفيروس الطائفي إلى المؤسسة الأمنية التي تحول قسم كبير منها تدريجيا من صمام أمان وملاذ يحمي أمن الناس عامة إلى عصابة طائفية لتصفية حسابات قديمة وجديدة وكثير منها لحسابات غير عراقية أصلا.

و إذا لم يكن أمام العراقيين أو اللبنانيين من خيار سوى التصالح مع تاريخهم والعيش المشترك في دولة عصرية تحمي قوانينها ومؤسساتها المواطن مهما كان دينه ومذهبه فإنه من العبث الخطير ترك فيروس الطائفية يمتد الآن إلى الساحة الفلسطينية عبر هذا الحديث عن مجلس شيعي مصطنع لن يزيد الأمور إلا سوءا في ساحة لا ينقصها التوتر أصلا. لهذا فلا مفر الآن لهم سوى السعي الدؤوب والصعب لإعادة مارد الطائفية إلى قمقمه لأنه إذا تعملق أكثر وغذته أحقاد الساسة والمتاجرين بالسياسة وأطماع القوى الكبرى فسيكون ذلك «تسونامي» المنطقة المقبل ربما بما لا يبتعد كثيرا عن مأساة رواندا المخجلة أواسط تسعينات القرن الماضي... لا سمح الله.

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 0208 (6 خطوط).
فاكس: 8902 741 0208